

الموتُ يَنْقُلُ الْمُؤْمِنَ مِنْ عَالَمِ الْاِخْتِبَارِ إِلَى عَالَمِ الثَّوَابِ وَالنَّعِيمِ أخى :

إن عمق الإحساس بصولة الحق . أو بالحق وصولته مع مقابلته بالباطل وتفاهته . مضافاً إلى هذا نقص النفس وغرورها وتمرداها عليه مع قوة الإيمان به واستجابتها للباطل بالانقياد والامثال مع الإيمان بالخسار والهلاك فى العمل بالباطل يحير الألباب ويدهش العقول ، ويرغم المؤمن على الفرار من نفسه مع اتهامها بالتزوير والتضليل ، ولذلك تجد الواحد منا يقول الحق فيما يعلم ويدرك ثم يتهرب من الانتساب إليه . والادعاء به حياء من الله الذى لا تخفى عليه خافية . ولا يعزب عنه مثقال ذرة . وهكذا أخى حياة المؤمن بين شقى الرّحى إلى أن يلقى الله ربّه فلا حول ولا قوة إلا بالله . أخى : لا تعجب ولا استغراب من بكاء المؤمن وضراعتة . ولجؤته إلى ربه . وخالقه . فإن الحق مرّ . ولكنه مرىء . والباطل خفيف ولكنه وىء ثقيل . ومن هنا نعلم أن التمسك بالحق أشد على النفس من قبض الجمر باليد . والاحتراق به فإن تألم النفس بالحق موصول وتألّمها بالجمرة محدود . ولولا فضل الله ورحمته ما تمسك متمسك ولا آمن مؤمن فالحمد لله والشكر له .

أخى :

إن الباطل الذى لا باطل فوقه أن يركن المؤمن إلى الدنيا ناسياً أو متناسياً آخرته : مسقطاً للموت من حياته وفكرته . والإنسان منا مريض بحصر الهم والتفكير فى الحياة الضرورية يرجوها ويتأملها فى أضيق حدودها ونطاقها وفى الموت والخشية منه باعتباره قاضياً على هذه الحياة التى يحبّها ويميل إليها .

وقد علمت أخى وسيدى : أن ذكر الموت يجب أن يعيش فى ذهن المؤمن بحيث يكون أشد تذكراً له من المريض المدنف والعليل المتعب ؛ لأنه يعيش فى

جوه بأعماله وأحواله . ويسبح في عالم الغيب بقلبه وروحه . فهو في حضرة الموت أبداً ذاكراً له ومستعداً ، وقد علمت أخى وسيدى أن ذكر الموت الذى لا يقدر عليه غيره سبحانه ينبّه ويلفت إلى الحياة ضده . فكما لا يقدر على الموت غيره كذلك لا يقدر على الحياة سواه . فإذا اكتمل اليقين بقدرته على الحياة والموت تأثرت النفس وانقادت لأمر المحيى المميت بمقتضى حرصها على الحياة الحبيبة إليها . فهكذا أخى يعالج المؤمن نفسه بنفسه وشعوره بشعوره . وإحساسه بإحساسه . فإن النفس إن لم تعالج داءها بدوائها لا تعالج ولا تثوب إلى الرشd . أما ما تسمعه من الغير فإنه مجرد تذكير . وللعلم أقول إن ذكر الموت فرض علينا فى اليوم خمس مرات . ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا ﴾ فالصلاة من أعمال الآخرة من حيث القصد وهكذا ذكر الموت . فإذا لم يكن الاستعراض للآخرة خلاها لا يكون الخشوع فيها ولا الإحساس بها . ﴿ قَوْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ۖ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ وقد علمت أخى أن الموت أول منازل الآخرة من حيث العمل لها . فالعبرة بالعمل الذى يحمل على ذكر الموت . فإذا كان ذكر الموت لا يحمل على أعمال الآخرة فلا قيمة للذكر ، ولا أجر للعرض . ومن هنا نعلم السر فى عدم استفادة الكثير من الناس بذكر الموت وتذكره وخاصة (التَّوْبَةُ) الذين يباشرون دفن الأموات والموااة عدة مرات فى اليوم . وقد علمت أخى أن من تذكر الموت فى صلاته أحسنها ولو بقدر لما لها من الصلة به وما بعده من الوقت .

وختاماً أقول : إن الله تبارك وتعالى جمع فى الذكر بين الحياة والموت لما لهما من صفة الاقتران . وفى ذلك إشارة إلى الجمع بينهما فى الإحساس والشعور . فكما يذكر الإنسان حياته الواقعة عليه يذكر الموت الذى يقضى على هذه الحياة الواقعة فى الوقت الذى يريد الله . ﴿ قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تُفَرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ ﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ أخى للحق : نوره وناره . فمن لم يحترق بناره لا يجد نوره ولا يستضيء به . اللهم ارزقنا الحق . وارزقنا اتباعه . وأرنا الباطل باطلاً

وارزقنا اجتنابه . « فإنا لله وإنا إليه راجعون » وللعلم أقول : إن النفس بمقتضى طبيعتها تفر من كل ما هو حق رغم وقوع الإيمان به أو تميل إلى الباطل وتستأنس به رغم إيمانها بنتائجه وبطلانه « والكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت . والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني » . أو كما قال .

وقد سئل رسول الله ﷺ عن الكيس فأشار إليه بهذا الحديث . ولذلك قال : هل تدرون أى الناس أكيس ؟ قالوا الله ورسوله أعلم . قال : « أكثرهم ذكراً للموت وأحسنهم له استعداداً . قالوا يا رسول الله . هل لذلك من علاج ؟ قال نعم : التجافى عن دار الغرور . والإنابة إلى دار الخلود . فإذا دخل النور فى القلب انفسح واتسع للاستعداد قبل نزول الموت » . أو كما قال .

فانظر أخى إلى الأسباب التى ترغم النفس على قبول الحق ، والعمل به حيث لا طريق إليه سوى ما ذكر فى هذا الحديث وغيره . ﴿ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ﴾ أعاذنا الله وإياكم من النار وما قرب إليها من قول أو عمل . ﴿ إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى ﴾ .

وقد علمت أخى أن تذكير النفس دائماً بالموت يحدد إقامتها . ويفسد ملذاتها وشهواتها . ومن هنا نعلم السر فى إصابة الله عباده بالأمراض والأسقام . ولماذا يكفر بها الذنوب والسيئات ويمحو بها الخطايا والآثام . فالمرض أخ الموت وهو عنوانه ودليله . فالمصاب به لا ينفك عن ذكر الموت . بل يتصوره فى كل لحظة . من لحظاته . فيفزع إلى الله ويلجأ إليه مجرداً من حوله وقوته . وفى هذه الحالة لا يكون للنفس شأن من شئون شهواتها وحفظها . ومتى ما بلغت النفس هذه المرحلة من الشعور والإحساس فالصدق دأبها ، والإخلاص حياتها . ولهذا يكفر الله سيئاتها بالمرض .

وقد علمت أخى أن الحياة ساحة الموت يترتب عليها استفراغ النفس من الدنيا بحيث لا يكون ثمة تفكير فى شأن من شئونها سوى الحياة فى أضيق

نطاقها . فالمريض لا يفكر إلا في الحياة فقط . أما الشهوات والحظوظ والمال والجاه وما إلى ذلك من الكماليات فإنه لا ينظر إليها ولا يذهب بقلبه عليها . ولما كانت الحياة المطلقة لا غبار عليها . ولا مانع من العمل لها علّها تكون وسيلة إلى طاعة الله وعبادته . فالله تعالى لا يؤاخذ عباده على التفكير فيها والأخذ بأسبابها . وربما يؤجرهم عليها إذا كانت نتيجتها صالحة نافعة . ولما كان أمر المريض محصوراً في الحصول على هذا اللون من الحياة ؛ فهو في كنف الله ورحمته ينظر الله إليه بعين الرضا والمغفرة .

وقد علمت أخى أن الفرار من الموت طبيعة النفس ولذلك لا يؤاخذ الله عبده على الفرار الشرعى الذى هو من طبيعة النفس : ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ فالعلاج من الأمراض فرار في صورة دفاع أو دفع في صورة فرار . والأكل والشرب توقي في صورة فرار وطلب للحياة بصفة عامة مع شدة الرغبة فيها فراراً من الموت . ولما كان الموت أمراً لا بد منه فالفرار منه لا يجدى ولا ينفع إلا إذا كان واقعاً من الإنسان بمقتضى طبيعته وجبلته وقد عرف الصادقون ذلك معرفة توازى وتزيد على معرفتهم بالحياة العزيزة على النفس ولذا حصروا الفرار من الموت في حدود الطبيعة النفسية والجبلية البشرية . وتجردوا بأعمالهم الدالة على التصديق بالموت قال تعالى : ﴿ فَتَمَنُّوا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * وَلَنْ يَتَمَنَّوهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ .

وقد علمت أخى أن التمنى للموت من الصادقين ليس معناه الطلب والرغبة والسعى إلى الانتحار أو الحصول على الموت : كلا وألف كلا : إنما هو قراءته على النفس وتذكيرها به ، وحضها على صالح الأعمال بذكره واستعراض ما بعده . فإن الصدق في الإيمان يقتضى النظر إلى الموت كما هو الشأن في النظر إلى الحياة حيث هما سواء بالنسبة لقدرة الله وإرادته قال تعالى : ﴿ قُلْ بَأْسُهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ رَعَيْتُمْ أَلَكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنُّوا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * وَلَا يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ لماذا لم يتمنوه ؟ لأنهم غير أولياء الله . والدليل على عدم ولايتهم لله ما قدمت أيديهم من الأعمال والأفعال والله عليم بالظالمين أمثالهم .

وقد علمت أخى أن كلمة التمنى فى اللغة القراءة وتمنى الكتاب قرأه قال تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أُمَانِي ﴾ / ويقال هذا شىء رويته أم شىء تمنيته . وفلان يتمنى الأحاديث أى يفضلها . وأعلم أخى أن من تولاها الله فتولى ذكر الله والتعرف إليه أخلص وصدق . ومن صدق قرأ الموت على نفسه بمعنى تذكره وتذكر ما بعده بالأعمال . والأفعال والأقوال . فالمراد بالتمنى الحياة فى حيزه والعيش فى كنفه كأنه الحى الميت ، والميت الحى مع الأحياء بيدنه وجسمه . ومع الأموات بقلبه وروحه فإن التمنى من أعمال القلب والروح . ومن هنا نعلم أن التمنى للموت معناه استغراق الحياة كلها فى الأعمال التى تجعله حياة جديدة كأنه لا موت إنما حياة لها معناها ومغزاها . ومن معانى تمنى الموت الاستئناس بالجزاء والثواب والنعيم الأبدى الذى هو مفتاح الموت . فإن الموت ينقل المؤمن من عالم الابتلاء والاختبار إلى عالم الثواب والنعيم . فالتمنى خاص بعالم النعيم لا بذات الموت الذى تكرهه النفس وتنفر منه . ومن هنا نعلم أن من علامات الصدق تمنى الموت لما بعده . وفقنا الله وإياكم إلى ما يحبه ويرضاه بمنه وكرمه .

* * * *